

الباب الثامن

« آخر ما كتب ديكنز »

« بليك هاوس »

بعد إنتهاء ديكنز من كتابة « دافيد كوبرفيلد » بدأ في رواية أخرى نشرت تحت عنوان « بليك هاوس » يتحدث فيها عن أسرة وما يحدث لأفرادها أثناء إنتظارهم حكم القضاء في قضية لهم

وقد كان الغرض الأساسي من كتابة « بليك هاوس » هو التحدث عن مساوىء القضاء في ذلك العهد وإرتباطها بحياة الأفراد .

أن قضية « جنج » ظلت تعرض في المحاكم في فترات مختلفة لمدة تسعين عاماً ، وقد اختار ديكنز شخصيات الرواية من الرجال الذين عرفهم فثلاثاً سكيبول هو « ليه هنت » وقد استطاع ليه هذا عند قراءته الكتاب أن يعرف نفسه كما أن « بويثورن » كان يمثل « لاندن »

وقد لا نعد هذا النوع من الروايات ضعيفاً . إذ أن جميع الروائيين المشهورين يعتمدون في تأليفهم على تجاربهم . فقد قام أسلاف ديكنز أمثال سكوت وسموليت وفيلدنج وجولد سميث ، بل وسير والتر سكوت نفسه بكتابة رواياتهم معتمدين على الواقع ، مستخدمين أبطالها من العائلات والأصدقاء الذين عرفوهم في حياتهم . ولكن الروائي عليه أن يستخدم

الحقيقة مضافا اليها ما يراه من تعديل ، مستعينا في ذلك بخياله وفكره .
ولقد خلق ديكنز شخصية هاريت مارتينو إحدى كاتبات العصر في
شخصية مسز جلبي . وكانت هاريت قد كتبت خمسة وعشرين قصة تعرض
فيها نواحي الاقتصاد السياسي ، ولكنها لم تستطع أن تدرك أن المقصود
بمسز جلبي هي نفسها . منذ ذلك الوقت بدأ ديكنز في تصوير الحياة تصويرا
دقيقا كما نرى في رواية دوريت الصغيرة وقد استخدم الواقع الذي يقوم
على أساس التجربة .

ونرى أن جميع الشخصيات في هذا الكتاب تتأثر أو تتعلق حياتهم
بالقضاء والمحاكم التي يظهرها ديكنز بمثابة محور للشر . إذ لها تأثير سيء في حياة
هؤلاء الأفراد

وهذه الرواية مع أنها كانت تتطلب تركيز فكرة لدرجة كبيرة
إلا أنها كانت أسهل في تأليفها من رواية « دومي وإبنه » التي ألفها في نهاية
نوفمبر عام ١٨٥١ وقد أتم كتابتها في أغسطس عام ١٨٥٣ وأهدى الكتاب
إلى رابطة الأدب والفن

وأما « أيام الشدة » فقد فكر أولا في الموضوع ثم بدأ في الكتابة عام
١٨٥٣ في فصل الشتاء حين كان يستعد لتمثيلية العيد وقد أتم كتابتها في
بولون في صيف ١٨٥٤ وأهداها الى كارليل

نجد في « بليك هاوس » بعض الصفات التي يمتاز بها كتاب « دافيد كوبر فيلد »
والقصة تحكي انا عن طريق صاحبها . فكما أن دافيد يقص علينا تاريخ حياته ، كذلك
تقوم « استر سمرسون » بذكر الحوادث التي تقع في الرواية . وتعتبر بليك
هاوس أحسن روايات ديكنز بالنسبة إلى ارتباط موضوعها بالأحكام في

التصميم والتأليف إذ أن كل حادثة في الرواية لها قيمتها الخاصة في التأثير على باقي الحوادث .

نجد في رواياته الأخرى أن بعض الحوادث تقوم بذاتها وليست مرتبطة بالرواية ارتباطا تاما ، وأما في بليك هاوس فكل الحوادث سواء أكانت مهمة أو تافهة لها تأثيرها على الموضوع ، فتجلب الحزن أو الفرح طبقا لمقتضى الحال .

جميع أفراد القصة يتأثرون من نتائج القضاء سواء أكانت بطريق مباشر أو غير مباشر ، ويزداد عدد أفراد الرواية كلما تعمقنا في القراءة . وأخيرا حين ينطق القاضى بالحكم ، نجد أن المصاريف التي تكبدتها القضية قد استنفدت المبلغ الأصلي .

نجد في كتب ديكنز المختلفة أن الوعظ والارشاد يتخللان تلك الروايات ، وأما في بليك هاوس فإن هذه الصفة تطفئ على كل شئ آخر . فنحن نشعر بمساواة القضاء في كل صفحة من صفحات الرواية وهذا بالرغم من أنها تعتبر من انجح ما كتب ديكنز . إن الكاتب لا يحاول أن يغير مجرى تفكيرنا حتى إن شخصية سكيمبول أو شاربا هولا تجعلنا ننسى ما يدور في الرواية . كما يحدث حين تظهر مسر جامب في « مارتن شرلويت » .

إن ديكنز يعرض لنا الناحية المؤلمة والمظلمة في الحياة ولذلك كان يتطلب منه أن يرجع في بليك هاوس بعض العناصر التي تنسينا الهموم ولو إلى حين . .

تقوم الرواية حول ريتشارد كارستون الشاب الذي يشترك مع أدا كلير

قريبة له في ميراث تقام عليه قضية تعرف بقضية « جاردنيتي » أما ريتشارد فهو اضعف إرادته لا يجهد نفسه في الحياة ، بل يتخذها ذريعة للفسق السهل ظانا أنه سيرث مبالغاً كبيراً يساعده على بناء حياته ، ولكن القضية بعد تغطية المصاريف لا تترك لها شيئاً وأما آدافها صديقة تدعى « إستر » تعتقد أنها فقدت والديها وتقوم بسرد حوادث القصة على القارى .

وفي القصة يقدم لنا المؤلف السير ليستر ديدلوك الذى يعجب بزوجه الجميلة « ليدى ديدلوك » التى كانت قبل زواجها قد أحبت « كابتن رودون » وأصبحت أما لطفلة لم تكن تعتقد أنها على قيد الحياة ، كما أنها كانت تعتقد أن الكابتن قد مات غريقاً ، ولكن الطفلة لم تترك غير « استر سمرسون » كما أن رودون كان يعمل ككاتب فقير الحال وتمكتشف ليدى ديدلوك أنه على قيد الحياة ، كما أن المحامى العجوز تلكمجنجورن يزعم أن هناك سر فى حياة ليدى ديدلوك ، وبعد موت الكابتن رودون يستطيع المحامى أن يقف على حقائق هذا السر ويهدد ليدى ديدلوك بأنه سيفشى السر لزوجها فى تلك الليلة ولكنه يقتل ويقوم البوليس السرى « بكيت » بكشف السر للبارون وفى الوقت نفسه يقبض على عمادة ليدى ديدلوك الفرنسية والتي كانت قد ارتكبت الجريمة فتفتر إزاء هذه الحوادث ليدى ديدلوك ويجدونها جثة هامدة بالقرب من مدفن حميتها السابق . . .

إن جزءاً كبيراً من القصة يختص باخلاص استر سمرسون لجون جاردنيس وكيف أنها قبلته زواجها ، لشعورها بالواجب نحوه ، وانتقديرها حسن معاملته لها لأنه كان يعاملها كأبنة ، وذلك بالرغم من أنها كانت تحب طبيباً شاباً يدعى دور كورت . وأما سكيكبول فهو يمثل الشخص المحب الذى يدعى براءة الطفولة وعدم استنطاقه الشعور بالمسؤولية حتى ينال كل ما يريد من الآخرين

وأما « المنزر جلي » التي تهمل في شؤون وإدارة منزلها وأطفالها لأنشغالها في المشاريع والجمعيات فهي تقابل من ديكنز بكرة، لأنه يؤكد لنا أن المكان الأول للسيدة هو منزلها وليس أى شيء آخر في الوجود ، وذلك لأنه كان يرى أن على الانجليز ان يعالجوا ما تغشى بين ظهرانيهم من مرض وجهل في حين أنهم كانوا لا يهتمون بشيء سوى إصلاح مدنهم وقراهم .

كتب دين رامساي في ذلك الوقت إلى فورستر يقول « حقا إنها أقوى وأنجح رواية كتبها ديكنز . إن شخصية جو تعتبر شخصية ناجحة . في الرواية نجد الطبقة التي لم تمسها الثقافة ، كما أن ينفث فيه الشعور الحقيقي السامي . »

« إن استر سمرسون تكسب حب كل من يقابلها فيقع في حبها المسترجين كاتب محام فيطلب يدها ، ولكنها ترفضه فيقوم يتبعها إلى حيث تذهب ناظرا إليها بعين ملؤها الشر . وأما أمه ولو أنها تظهر مرتين فقط إلا أنها تبقى في ذاكرتنا حين يعلو صوتها كلما همت بهبوط الدرج . ١ »

لاقي كتاب « بليك هاوس » نجاحا أكثر من دافيد كوبر فيلد . ولكن الكاتب كان يشعر كأن شيئا ينقصه رغم أنه كان يعيش في سلام ووثام . ألم يكن قد حصل على كل شيء عمل وصلى من أجله ، والدموع تترقق في مقلتيه في تلك الليلة حين نالت أخته فاني فيها مدالية معهد الموسيقى ؟ ألم يكن رجلا يشار إليه بالبنان ، رجلا متقفا استطاع بقوة قلبه أن ينفق على عائلة كبيرة العدد واحتفظ بعدد من الخدم والحشم . ألم يكن اسمه معروفا في قارتين على الأقل ؟ أن قضية « بليك هاوس » قد أظهرت تقدمه في حياته الاجتماعية إذ استطاع بشهرته أن يكشف سر الطبقات الارستقراطية ولكن النقد لم يقابلوا الكتاب باستحسان وإذا دققنا البحث لوجدنا أن قليلا من روايات ديكنز لاقى استحسانا من النقد بل أن بعضهم كانوا يبنذون المؤلفات عند ظهورها

ولكن بعضى الزمن تظهر لهم أهميتها . وقد بيعت نسخ من « بليك هاوس »
بلغ عددها ضعف عدد نسخ « دافيد كوبر فيلد »

وفى صيف عام ١٨٥١ كتب « كيت ديكنز » كتابا تحت اسم « ليدى
ماريا ككتوبك » وكان موضوعه « ماذا نأكل فى العشاء ؟ وقد ذكر أحد أبناء
ديكنز أن الكتاب كان يحتوى على ألوان الطعام التى كانت تقدم فى
« تانستوك هاوس » أى منزل « تشارلس ديكنز » ومن مزايا الكتاب أنه
يعطينا فكرة عن ألوان الطعام فى عصر المائدة فيكتوريا إذ كانت الأطعمه
تقدم وتختلف بنسبة عدد الضيوف .

مذكرات أمريكية

قام ديكنز بإظهار عيوب المجتمع الانجليزى فى ذلك العصر بدون رحمة
أو هوادة ولم يجرؤ أحد أن يعتبر المؤلف معيبا أو مقصرا فى حق أمته .
كان هذا الاختلاف بين وجهتى نظر الأمريكين والانجليز فى ذلك الوقت إذ
أن ديكنز عندما قام بنقد امريكا فى كتابه « مذكرات أمريكية » أو كتابه
الاخير « مارتين شزلويت » غضب الأمريكيون وزعموا أن المؤلف أنكر
الجميل لأنهم أكرموا وفادته وكانت النتيجة إنهم قوبلوا منه بنقد مرير
لطرق معيشتهم

تاريخ إنجلترا للأطفال

فى ذلك الوقت أيضا أتم تشارلس ديكنز كتاب « تاريخ إنجلترا
للأطفال » وهو الكتاب الذى كانت قد ظهرت بعض فصوله فى مجلة « هويسبولد

وروز ، وكان الغرض من هذا الكتاب هو إعطاء أولاده فكرة عن تاريخ انجلترا، وهو كتاب تاريخ ما كولي ينتهى بشورة ١٦٨٨ ولكن يعتبر هذا الكتاب أسوأ ما كتب ديكنز فكان جديراً أن يدع التاريخ جانباً وأن يكتب الروايات. وقد قام فى هذا الكتاب التاريخى بإضافة آرائه الشخصية فى الملوك المختلفين وأعمالهم وخصائص الأزمنة التى عاشوا فيها .

أيام الشدة

كان كتابه التالى « أيام الشدة » وهو ماظهر فى مجلته الأسبوعية تباعاً إذ أن ديكنز كان يجد صعوبة فى الكتابة المحددة المساحة . كان دائماً يسعى لحرية التصرف فى كتابته فيجود بفكره وتصرفه فى التأليف . يريد أن يكون طليقاً حراً يكتب ما يشاء فى المساحة التى تحتاج إليها فلا يتقيد بعدد الصفحات

ان أيام الشدة يعتبر كتاباً هاماً لجميع الذين يهتمون بدراسة الاحوال الاجتماعية فى بلاد صناعى فيظهر علاقة الرئيس بالمرؤوس

تقع حوادث القصة فى بلدة كوكتون حيث تدور حول توماس « جراد جريند » أحد سكان كوكتون - البلدة الصناعية - وهو رجل مثقف يعتقد فى الحقائق والاحصائيات ولا يعتقد فى شىء آخر، ويربى أولاده لويزا وتوم على هذا المنوال، وبعدئذ تكبر لويزا فتتزوج من جوزايا بوندزنى وهو يملك مصانع للنسيج ، ويكبرها بثلاثين عاماً ، فتقبل لويزا هذا الزواج لى تساعد أخوها الذى كان يعمل عند بوندزنى لعدم اكتراث أبوها بأحوالها تتعرف لويزا على جيمس هارنهاوس، رجل سياسى لا قلب له ولا مبدأ

فيتروود اليها فتذهب الى أبيها هاربة منه وتطلب حمايتها حينئذ يشعر بتقصيره في تربيته لاولاده فتنفصل عن بوند زنى، وأما توم الذى كان قد سرق خزينة بوند زنى فيرسل الى خارج القطر لكي يبدأ حياة جديدة .

حينما كان ديكمنز يجلس بالقرب من المدفأة ذات ليلة وجد بين الخطابات العديدة رسالة ذات خط معروف لديه ففحص غلافها، فاذا بها من ماريا بيد نيل حبيبته الاولى فكتب لها يقول « لم أكن فى يوم من الأيام أحسن مما كنت عليه حين أدخلت السرور على قلبي فأصبح بخالجنى الآن شعور غريب وهو أن أطلعك على امنيتى فى الحياة وهذه الأمنية هى أن تتوقى عن القراءة وأنت تطالعين دافيد كوبر فيلد » وتقولين لنفسك .

« كم أحبنى هذا الشاب يوما من الأيام، وما أحسن ذاكرة ذلك الرجل الذى يذكر هذا الحب الى الآن ! » ظهرت ماريا بيد نيل فى دافيد كوبر فيلد فى شخصية دورا سنبلو »

ولكن بعد كتابة هذه الرسالة وبعد أن تقابل مع ماريا وجد أنها كانت قد أصبحت سيدة بدينة متقدمة السن وذات وجه قبيح. ان دورا سنبلو كانت تمثل صورة الفتاة التى أحبها المؤلف وأضاف الى الحقيقة خياله فبعد أن رآها وجد ان حلمه لم يكن له وجود فكانت النتيجة أن سرد تأثير هذه المقابلة فى رواية « دوريت الصغيرة » وظهرت ماريا فى شخص « فلورا » التى تضايقنا بحديثها ولكننا مع ذلك نحبها

« دوريت الصغيرة »

كان ديكمنز يعيش مع عائلته فى باريس حين بدأ فى كتابة « دوريت

الصغيرة « وقد بلغت عدد النسخ التي بيعت من كل من الأعداد الأولى أربعين ألف نسخة، وقد أتفق مع المستر هاشيت أن يدفع لديكنز مبلغ أربعين جنيهًا شهريًا لمدة عام لإعطائه حقوق ترجمة كتبه إلى اللغة الفرنسية وحين وجوده بباريس أخذ إثنان من الرسامين برسم صورة لديكنز وكانا أخين فسكتب ديكنز يقول « أننى لا أستطيع التخلص من مشاغلي حينما أجلس لكي ترسم صورتي حيث يكون عقلي مشغولاً « بدوريت الصغيرة » .

فى « دوريت الصغيرة » يظهر المؤلف أخطاء المصالح الحكومية حيث يقوم كل فرد بالتخل عن المسؤولية، وإسنادها إلى غيره والرواية تنقسم إلى جزئين ، الجزء الأول يدور حول حياة ولیم دوريت فى سجن الدين « المارشاليزيا » حيث يسجن بسبب كثرة ديونه، وأما الجزء الثانى فهو يسرد لنا وقائع حياته حين تؤول إليه ثروة ضخمة فيصبح من الأثرياء ، ويسافر إلى أوروبا لكي يقف على معالمها وآثارها .

تبدأ القصة فى مارسيليا حيث تقابل رتجو والياس بلاندوا الشرير الذائع الصيت وكافاليتو ونجل عائلة ميجلر وخادماتهم وبصحبتهم مس ويد والجميع يحجزون بسبب الحجر الصحى . وفى نفس الوقت يقابلهم هناك آرثر كلنام البطل الذى يريد الذهاب إلى لندن لرؤية والدته . إن منزل المستر كلنسام كان يسوده الغموض والأسرار . فى هذا المنزل القديم الحالك الظلام تسكن مسز كلينام، وهى سيدة لاتستطيع السير بدون عصاها، كما أنها لازمت غرفتها خمسة عشر عاما يزورها ابنها ليخبرها أنه يريد التنازل عن نصيبه فى العمل فتحل محله خادمها وكاتم أسرارها «فليتوبش» . وقد كانت الوحيدة التى تبعث روح البهجة فى المنزل بوجودها هى « أيمى دوريت » التى كانت تذهب لحياكة ما كانت تحتاج إليه المسز كلينام . يهتم آرثر بأمر الفتاة ويتبعها إلى

أن يقف على سرها، فيعلم أنها تسكن في سجن المارشالزيا، حيث كانت العائلة تلازم ولیم دوریت الذي كانت تقوم إيمي بالانفاق عليه، وعلى باقي أفراد العائلة . يزور آرثر كلينام سجن الدين، وهناك يصبح صديقا لولیم دوریت الذي كان غفورا بأن يلقبه « باب المارشالزيا » لقد ظل المستر دوریت سجيننا لمدة ٢٣ عاما وقد ولدت إبنته إيمي هناك حتى إنهم يعتبرونها إبنة المارشالزيا وكانت تراعى مصالح أحبا وإختها فاني التي كانت تقوم بالتمثيل وكانت لا تفكر في نفسها بل دائما في الآخرين . يقوم آرثر بمحاولة تخلصهم من السجن وحينئذ يتسنى له التعامل مع عائلة مردل بارناكل وتسنع الفرصة للوفاق أن يقوم باظهار أخطاء عائلة بارناكل . كما يقدم لنا أيضا عائلة مردل وعائلة بلورنيس وغيرهم . يكلل مجهود آرثر بالنجاح فيستطيع أن يحصل على المعلومات التي تثبت الثروة التي تؤول إلى المستر درويت، الذي يترك السجن ويسافر إلى الخارج تصحبه عائلته في كل مظاهر الثروة ما عدا دوریت الصغيرة التي ظلت كما هي . يزور المستر دوریت كثيرا من البلدان الأوروبية وهناك يتقابل مع عائلة مردل فتصبح فاني خطيبة ادموند سباركل الذي يحصل على وظيفة كبيرة عن طريق زوج ، أمه وبعد فرح بهيج يسافر العروسان إلى فلورنس لقضاء شهر العسل ، أما ولیم درويت فيفقد قواه العقلية ويموت أثر حفلة كانت تقيمها المسز مردل وأما المستر ماردل فينتحر بعد إفلاس البنك الذي كان يديره . فيتأثر كثير من الناس أمثال آرثر الذي يرسل الى سجن الدين فترجع إيمي من إيطاليا وتظهر له عطفها حين يمرض وأما دوبس شريك سابق له فيمرض عليه أن يصبح شريكا له فينقذه من السجن ويتزوج آرثر من إيمي دوریت .

ومن الأهمية ان تذكر انه في عام ١٨٥٦ تبعنا للرسائل التي كان يكتبها

المؤلف لزوجته لم يكن هناك أى فكرة عن انفصالها، فقد كان يكتب في خطاباته « إلى عزيزتي كاترين » وكان يسرد لها كل ما كان يحدث في المنزل مما يدل على أن العلاقات بينهما كانت حسنة إلى النهاية وأنها توترت فجأة .

طوفان ديكنز

ذهب ديكنز في فبراير ١٨٥٧ الى جادس هل ذلك المنزل الذى كان يحلم به في طفولته. وقد أرسل اليه هانس أندرسون مؤلف « قصص الاطفال الخرافية » المشهورة باسمه يعبر عن إعجابه بدوريت الصغيرة فقال . - « واجب على أن أعجب بك من أجل هذا الكتاب وحده ، حتى ولو لم تسكن قد منحت العالم تلك المؤلفات العظيمة « دافيد كوبر فيلد » و « الحانوت العجيب » الخ . . عندما التقينا كنت في إنجلترا آخر مرة عندما أهديتني كتابك وقد حصلت على مائقت بعدها، ولكن عليك ان تهدينى نسخة من « دوريت الصغيرة » عندما نتقابل مرة ثانية - لتسكن بركة الله وسرورهم معك بالقدر الذى ادخلت به السرور علينا جميعا . »

بدأ ديكنز يشعر بأن كيت لم تسكن بالزوجة التى تليق برجل عظيم مثله لأنه كان قد رأى في باريس سيدات أمثال جورج ساند وغيرها من النساء الأدبيات، وأما كيت فكانت ذات معلومات محدودة، ولم تهتم بأى موضوع ما، بل كانت لا تستطيع الاشتراك فى المناقشات، فأخذ يسأل نفسه. هل كانت كيت هى الزوجة التى ينشدها رجل مثله ! . انه لاحظ نقصها حين كان يقوم برحلته فى أمريكا وقد اصططحها الى كثير من البلاد ان الأوروبية واحسن كل هذه البلاد لم تترك أثرا فيها . إن كيت لم تتغير بل ظلت على حالها ، وربما كان السبب الحقيقى فى توتر العلاقات بين تشاراس ديكنز وزوجته هو حبه

لا ان ترنام، ممثلة قايها في ماشستر وكانت تقوم بالتمثيل في إحدى مسرحيات « ويلسكي كولنز » وكان ديكنز مشتركاً في التمثيل .

تم الانفصال بين كيت وديكنز . فذهبت كيت للسكنى في منزل منفرد بعيداً عن زوجها وأطفالها . وقد كان ابنها الوحيد الذى يسكن معها هو شارلس الذى أرسله ديكنز لى يعيش مع أمه . وقد كتبت كيت تقول « إن شارلس العزيز لطيف ورقيق فى معاملته لقد تركت أمرى الى الله فلتسكن إرادته ورغبته فى الحياة أن أعيش عيشة راضية إن لم تسكن سعيدة . . إن موقفى محزن والزمن وحده كفيل بأن يحد من الألم الذى أشعر به فى قلبى . . » وقد كانت جورجينا أخت كيت تقوم بالاشراف على المنزل والأطفال كما أنها كانت تعنى بأمور ديكنز أيضاً ، وقد وصلت الحال أن اعتبر ديكنز كل فرد فى صف زوجته عدوا له . لقد كانت كيت تبلغ فى ذلك الوقت الثالثة والأربعين من عمرها ، فى حين أن ديكنز كان يكبرها بثلاثة أعوام وكانا قد تزوجا منذ اثنتين وعشرين سنة ، وقد كانت جورجينا تفسر هذا الانفصال بأنه تم برضاء الطرفين وبناء على طلبهما وليس لسبب آخر .

ربما كان السبب فى طلاقهما يرجع إلى حب تشارلس ديكنز للنزل وكل ما يحمله للفرد من معان ، يصطحب عائلته معه فى رحلاته حتى لا يحرم من وجودهم معه . كان يشعر بالغبطة التى تشع منه للآخرين ، واسكنه عندما بلغ عامه السادس والأربعين تغيرت وجهة نظره ، فقد كان يكره الرجوع الى المنزل لأن كيت كانت هناك !

إن تشارلس ديكنز كان طول حياته يحب المثل العليا وكان حبه مثاليا فقد أحب ماري هوجارت حبا جنونيا كحب دانتي لبياتريس .

كان ديكنز يطوف انحاء بريطانيا لقراءة أجزاء من كتبه وكان أحب

قصة لديه هي « النشودة العبد » . إن قراءاته كانت تجلب الدموع والمرح لآلاف من المستمعين الذين كانوا يتأثرون تأثيرا عميقا بحوادث تلك القصص . كان لديكنز مقدرة فذة بان يدفع الجمهور في تيسار جارف نحو الهدف الذي كان يرمى اليه في كتبه . وكان دائما يحصل على أموال طائلة من تلك القراءات برغم ما كانت تتطلبه منه من مجهودات جبارة في مماوسة القراءة المرات العديدة ، حتى تؤثر نبراته وطريقة لقائه في السامعين . قام ديكنز بمائة وخمسة وعشرين قراءة في لندن والضواحي كما أنه ذهب الى سكوتلاندا وإيرلندا أيضا . وكانت القاعات المعدة للقراءة تغص بال جماهير حتى تضيق بهم على رحابتها . ولقد كتب ديكنز في ذلك الوقت يقول « يظهر لي وكأنني دائما في عربة قطار أقرأ وأنا ذاهب للنوم . لولا إنني أعمل هذا لـم أكن أمتنع عن نفسي العوز لـكنت أـكفيت نفسي مشقة السفر والغياب والجهد » استمر ديكنز في قراءاته وكتب في أول عام ١٨٥٨ يقول « من الصعب معرفة جاد سهل مرة أخرى . إنني جاري إدخال التعديلات . . . ولكنني أجد نفسي شغوبا بالمكان . » حينما ذهب ديكنز للسكنى في جاد سهل لم تكن كاترين معه . ولكن اليس جاد سهل هو ذلك المنزل الذي كان ديكنز يحلم به وهو صغير، حينما كان يمر به فيتمنى لو يكون صاحب هذا المنزل السعيد ؟

كان ديكنز في عام ١٨٦٠ رجلا ذا شهرة عالمية في سن الثامنة والأربعين ومعروفا لدى كل فرد في بريطانيا . بل كان معبود الجماهير في العالم باجمعه . وكان في ذلك العصر يتمنى لو يستطيع أن يمحو الماضي ، وقد أحرق جميع خطابات التي كتبها في حياته ..

زار ديكنز أمريكا مرة أخرى وقام هناك ببعض القراءات في عدة أماكن وقد كان الاقبال عظيما لا يحتاج الى إعلانات لأن الناس كانت تتوق

لسماع المؤلف يقرأ ما كتبه... من كتابات جابت لسامعها السعادة والهناء ..

« قصة بلدين »

وأما في رواية « قصة بلدين » فهي ثانی رواياته التاريخية « بعد قصته المشهورة « باربنی رادج » وهذه القصة قصة تاريخية عن الثورة الفرنسية تنقسم إلى ثلاثة أقسام يربط القسم الأول بالثاني تاريخ بنك تلسون ذلك البنك الكبير الذي كان له فروع في كل من إنجلترا وفرنسا وعملاء كثيرون في البلدين . تبدأ حوادث القصة في عام ١٧٧٥ فنجد أن المستر جارفس لوري مثلاً الموظف في بنك تلسون في طريقه إلى دوفر ، فما يكاد يصل إلى هناك ، حتى يتسلم رسالة يقرأ فيها الجملة الآتية « انتظر الآنسة في دوفر .. لقد إعيد الى الحياة » وفي دوفر يحجز غرفة له ، وأخرى لدموازيل مانيت التي كانت قد استلمت رسالة للتوجه إلى باريس بشأن ثروة ضئيلة آلت إليها من أبيها . فيذهب الاثنان الى باريس وهناك تجد مانيت أباهما الدكتور على قيد الحياة ، وهو يصنع الأحذية ، بعد فقدته ذاكرته ، فتأخذه معها الى إنجلترا ، حيث تعنى به فلا تلبث أن تعود إليه ذاكرته بفضل مباشرتها له في بلده سو هو حيث كانا يقطنان . أما القسم الثاني من الكتاب فنشاهد فيه محاكمة شارلز دارناى وإتهامه بأنه جاسوس في خدمة لويس ملك فرنسا . فيقدم الدكتور مانيت وابنته للشهادة وتنتهى المحاكمة ببراءة المتهم ، وحينئذ تنشأ صداقة بين المتهم وبين الدكتور مانيت .

وفي باريس يقوم مونسنيير بأقامة حفل كبير يحضره ائيف من العلماء والفلاسفة ورجال الجيش ، وآخر رجل ينصرف من الحفل هو الماركيز « سانت ايفريموند » الذى يقتل في طريقه تحت عجلات عربته طفلاً صغيراً

فلا يهتم كثيراً بالحادث، بل يتابع سيره لينتظر ابن أخيه تشارلس دارناى وقد عاد اليه من لندن . كان دارناى يكره ايفر يموند كراهيه شديدة لذلك أراد أن يتنازل عن ثروة العائلة ، أو يضعها تحت تصرف أبناء يحسنون المحافظة عليها، ولكن سرعان ما يحدث انشقاق فى رأى بين الماركيز وابن أخيه دارناى وفى نفس الليلة يقتل الماركيز ويعود دارناى الى لندن حيث يحترف مهنة التدريس

أما فى الجزء الثالث فيطلب شارلز دارناى يد لوسى بعد أن يعترف لأبها بما أكتشف حياته من غموض وأسرار . فيوافق الأب ويزوجه بابنته ، فيسافر العروسان لقضاء شهر العسل فى راريكشير، أما كارتون خطيب لوسى الأول فيؤثر فيه الخبر تأثيراً بالغاً، ولكنه يظل على عمله مخلصاً لها فى حبه، ويعدها بأنه على أهبة مساعدتها فى أى وقت تشاء . فى أثناء غياب العروسين فى واريكشير يحدث هجوم على الباستيل . فيضطر شارلز دارناى بالعودة الى فرنسا لينقذ جايل خادم الماركيز الذى كان سجيناً هناك . وجايل هذا كان قد ساعده على الهرب بعد مقتل عمه ولكنه تصادف هناك بعض متاعب فيقبض عليه ويسجن فيقوم كارتون ببدال ملابسه بملابس تشارلس فينقذه من الاعداء، دون أن يفطن أحد . وذلك للتشابه الكبير بين تشارلس دارناى وكارتون وتكون خاتمة القصة بذلك سعيدة على النحو الذى أنناه بها تشارلس ديكنز، وعلى الأخص عندما يختمها بتلك العبارة البليغة « هذا عمل جميل يستحق التقدير والاعجاب إذا قارناه بأى عمل عملته من قبل .. إننى ذاهب الى الراحة الأبدية التى لم أشعر بها طول حياتى ! »

يقول النقاد بأن هذه الرواية ينقصها الكثير من مميزات ديكنز نفسه . ولكنها تعتبر دراما قائمة بذاتها تمثل الأخلاق السقيمة، والتضحيات النبيلة .

وانه لم يوجد رواية مثلها تؤثر في حياة العائلة أيا كان نوعها؛ بقدر ما تؤثر هذه الرواية بالذات في كل نفس بشرية . فعائلة الدكتور مانيت مثلا تتأثر بالثورة الفرنسية تأثيرا كبيرا .

نشر ديكنز هذه الرواية في عام ١٨٥٩ حينما كان يحجز لكتابه الجديد (Uncommercial Traveller) وقصته الأخرى في انتظار أحداث جسيمة . يتحدث ديكنز فيها على لسان ييب الذي يصف حوادث القصة في أسلوب سلس يغري القارىء على متابعة القراءة حتى النهاية

« نوافحات مخطرة »

يعيش ييب بطل الرواية مع أخت تكبره بعشرين عاما، كانت قد تزوجت من حداد يدعى « جوجار جورى » يخبرنا ييب بقصة حدثت له وهو صغير اذ كان يذهب إلى مقبرة ضمت أجساد أطفال وعلى مقربة منها صحراء مظلمة تنتهى عند شاطئ البحر . وقد اشعلت في جبهه منها فتارة لهداياه السفن وبها يعرف البحارة الطريق، ويتراعى على بعد هذا المنظر الفريد مقصلة ، ففي ذات يوم ذهب ييب لرؤية هذا المنظر فما كاد بخطو عدة خطوات حتى ظهر له رجل فى لباس رمادى اللون، وقد غلت قدماه باطواق حديدية وكانت هيأته هذه تدل على أنه سجين هارب حكم عليه بالسجن المؤبد، فما يكاد يراه الرجل حتى يمسك بتلابيبه، فيبكي الصغير ويتوسل اليه ألا يقتله ولكن الرجل الهارب يطمئن خاطره ويسأله أن يذهب الى المدينة ويحلب له طعاما وكانت تلك الليلة ليلة عيد الميلاد فيهرع القصبى الى القرية ويعود الى السجن بغذاء دسم ويقفل راجعا الى منزله .

ولا تقتصر القصة على هذا فحسب بل تشتمل على مفاجآت غريبة منها

أن يذهب بيبي مرة الى حانة في المدينة ليعود مع زوج أخته والكنه يدش
عندما يسلمه أحد الرجال شلنا ملفوفا في ورقتين من فئة الجنيه. ثم يصادف
بيبي غرائب أخرى منها أن يقوم العم بمباشوك بتقديمه الى مس هافيشام
في روشستر، وقد كانت هذه الفتاة غريبة في اطوارها، تركه يلعب مع أستيل
وكانت الأخيرة تحتقره وتعتبره من فصيلة العمال. وذات يوم يرجع
بيبي الى منزله فيجد أخته قد ضربت بألة حديدية وكانت هذه القطعة
الحديدية تدل على أن صاحبها كان أحد الهاربين من العدالة. ثم لا يكتفي
بهذا القدر، فما يكاد يمر العام الرابع من سني تربيته مع زوج أخته في أعمال
الحدادة حتى يخبره المستر جاجرز محامي مس هافيشام بأن أحد عملائه قد
ترك له ثروة طائلة فيظن أن مس هافيشام هي التي تركت له الثروة، ولكن
المحامي يخبره ألا يسأله عن فاعل الخير ويعده بأن يخبره شفويا عنه.

يذهب بيبي الى لندن حيث يبدأ دراسته ويقابل بعض أقرباء مس
هافيشام أثناء إقامته هناك. ثم يأتيه جوجرز جوري لزيارته متملقا إليه
ويناديه بكلمة سيدي، فيشعر بيبي بالفرق الناسع بين مركزيهما، ثم يقدم له
رسالة من مس هافيشام وخلاصتها ان أستيل تنتظره بالمنزل. وعندما تراه
مس هافيشام تؤكد له ضرورة حبه لأستيل التي لم تكن تبادله حبا بحب.
ولكن ما يكاد بيبي يبلغ الثالثة والعشرين من عمره حتى تكون أستيل قد
تزوجت من « بنتلي دارملز » ثم يتضح لبيبي آخر الأمر ان الرجل الذي ترك له
الثروة هو الهارب من العدالة الذي كان قد طلب منه الغذاء ليلة عيد الميلاد
وكان هذا الرجل بروفيه هو أبأ أستيل وكان عدوا لسجين هارب
كامبيسون. وكانت من هافيشام تحبه. تحدث محاولة لابعاد بروفيه عن
النارة فيتشاجر بروفيه مع كبوسيون فيغرق الثاني واما الأول فيعدم وتؤول

ثروته الى الدولة . بعد ذلك يسافر ييب الى الشرق ويعود فيتزوج أستيلا
التي كانت قد اصبحت أرملة .

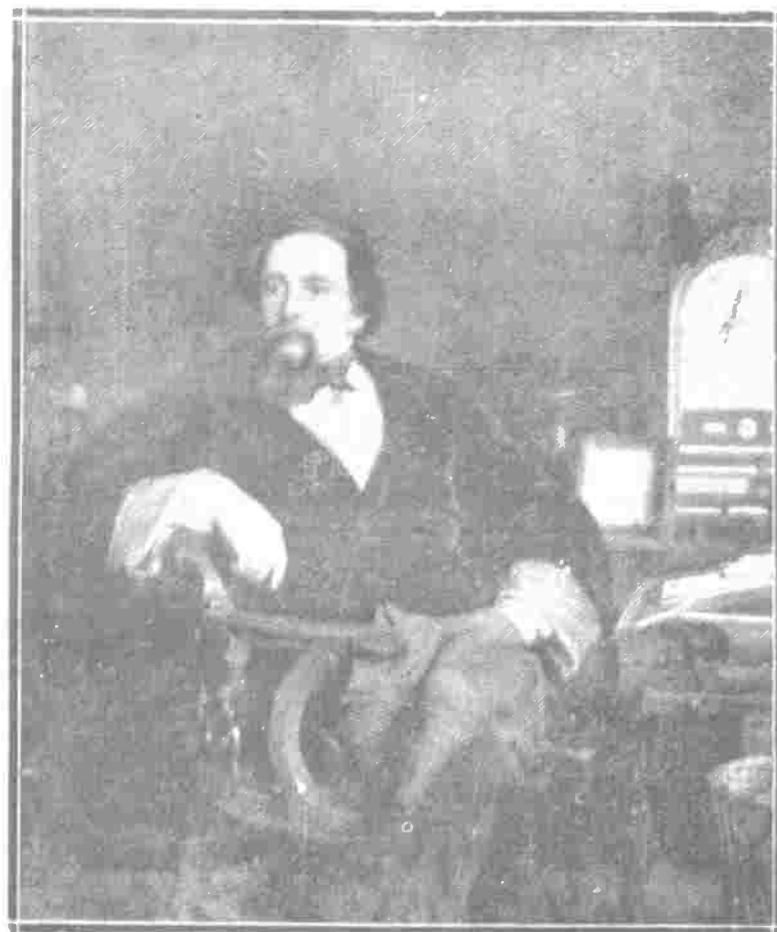
«سيدتنا الصرورة»

وأما الرواية التي تلت « توقعات خطيرة » فهي سيدتنا الصرورة
وهي تنقسم الى أربعة أجزاء تحتوي على الغموض الذي يقوم المؤلف بالكشف
عن نقابة . بما ان الرواية تعتبر دراسة للحياة المعاصرة ممثلة في الطبقة الوسطى
وتعتبر أيضا عن الاحوال الاجتماعية في القرن التاسع عشر ولقد نشرت
في اعداد شهرية بين اشهر مايو ١٨٦٤ ونوفمبر ١٨٦٥ . يدور موضوع
الرواية حول شخصية جون هارمون الذي يرجع من منفاه حيث ارسله
أب قاس كان يقرم بعمل مقاول فأثرى . وكان جون ينتظر أن يرث ثروة
أبيه على شرط أن يتزوج من « دبله ولفر » ولكنه لم يكن قد عرفها بعد
فيتفق مع أحد البحارة على أن يخفي شخصيته الى أن يتعرف على الفتاة التي
كان يريد أبوه ان يزوجها منه ، فيتأمر عليه هذا الرجل ، ولكنه يفرق بعد
أن يتكون قد حمل في جيوبه أوراق جون هارمون فينتشل من الماويل كنهم
يعتقدون انه قتل ، فيساعده هذا الاعتقاد على تنفيذ خطته ، فيصبح
سكرتيراً للمستربوفن الذي تؤول اليه ثروة جون هارمون وهناك يتعرف
على « دبله ولفر » التي تصبح بعد أن يتبينها المستربوفن قاسية في طباعها ،
فلا تلبث أن تثور دبله خصموصا حين يتظاهر المستربوفن بالإساءة نحو جون
فتتركه وتزوج بجون هذا و بعدئذ يكشف لها عن شخصيته . وفي نفس
الرواية نطالع قصة حب « يوجين ورايبرن » المحامي ليفري هكسام أبنة
أحد البحارة ، فيقوم راولي هيدستون منافس له في حب ليفري ويحاول

قتله . ولكن ليفرى تنقذه فى اللحظة الأخيرة وتزوجه . وفى الكتاب أيضا شخصيات تعطينا فكرة عن صفات الأفراد الذين عاشوا فى القرن التاسع عشر ، كما يبدى المؤلف رأيه فى الثروات الضخمة التى كان يتمتع بها أفراد قلائل وكيف أن الطبقة المتوسطة الثرية التى جمعت ثروتها نتيجة للانقلاب الصناعى قد أصبحت مذبذبة لديه . إن عبادة الثروة كلمة متصلة بكل السيئات التى كان يحتقرها ديكنز . . .

« ادوين درود »

قضى ديكنز آخر أيام حياته فى قراءة ما كتبه للجمهور كما أنه كان منكباً على كتابة آخر مؤلف له وهو « ادوين درود » الذى لم يتم كتابته . وكان كل ما كتبه ثلاثة وعشرين فصلاً ولكن هذه الفصول أحداثت ضجة أكثر من أى كتاب آخر كتبه وذلك لأنه تركه دون الوصول الى النهاية . تدور القصة حول أدوين درود ، وروزا بنت اللذان تواعدا على الزواج وكانت روزا قد تلقت علومها فى مدرسة مس نرينكلتن فى كلويستر هام فى بلدة روشستر حيث يقطن جون جاسبر وولى أمر ادوين وكان رجلاً غريب الأطوار ، يتظاهر بما يراه فى طباعه وأخلاقه امام الناس ، وكان يعطى روزا دروساً فى الموسيقى وكان يسمى معاملتها . وفى ذلك الوقت تحضر إلى كلويستر هام هيلين لانداس وأنوفا ينفيل الذى يعجب روزا ويحتقر معاملته ادوين لها فتحدث مشادة بين الاثنين ، وفى آخر زيارة لأدوين فى كلويستر هام يحتل روزا ويطلعها على أن زواجها لن يكون سعيداً فيستأخض خطبتها وفى نفس الليلة يختفى أدوين بطريقة تثير الشك فتقوم الشبهات حول ينفيل ، لما حدث بينهما من شجار فيقبض عليه ثم يطلق سراحه لعدم توفر الأدلة ضده ، فيقوم جاسبر



ديكنز في عامه الثامن والاربعين

باضطهاد نيفيل فيتبع روزا التي تطلب الممونة من ولي أمرها في لندن .

لقد كان ديكنز يميل في كتابه ادوين ورود طول اليوم، وفي وقت العشاء لا حظت جورجينا أن على وجهه إرتمت إمارات الأعياء والمرض وبعد دقائق كان في غيوبة دامت إلى أن فاه بالنفس الأخير .

كان ديكنز يريد أن يدفن بالقرب من جاد سهل وكان قد أوصى أيضا أن يكون تشييع الجنازة غاية في البساطة، ولكن جريدة التيمس في مقال لها نادت بضرورة دفنه في دير وستمنستر، فعلى الأمة أن تنفذ هذه الرغبة ولما كنهم احتراموا وصيته الثانية فكان جنازه حاليا من مظاهر العظيمة . وقبل أن يوارى التراب سمحوا للجمهور رؤيته للمرة الأخيرة لمدة يومين . وقد كانت الجماهير تبكيه وقد غاص وستمنستر بعد دهم الهائل وحتى هوتون صديق طفولته دخل وستمنستر يحمل شمعة لكي ينظر إلى جثمان ديكنز في تابوته البسيط .

مات المصلح العظيم الذي قضى حياته يحارب الجمل والفقر والمرض وكل مساوئ المجتمع في عصره . وإذا سألنا أنفسنا من أى شيء يتكون كتاب المجد ؟ ألسنا نجد أن صفحاته صنعت من جلد الانسان، وحروفه طبعت بالدم البشرى، وأنواره هي دموع وقلوب منكسرة ؟ نعم هكذا استطاع ديكنز أن يكتب لنفسه المجد بكده واجتهاده وحبه للانسان الذي جعله يسعى نحو نحو الأخطاء حتي تنتشر السعادة والرفاهية .

إن الشعب الانجليزي لمجد ديكنز اليوم لأنه يتمتع بحرية لم يحلم بها الناس في القرن التاسع عشر ...